حكايات من التاريخ

كرامة عالم

وحكاية أخرى

كتبها

محمد رجب

رسوم

محمد نبيل

سقيم

جميع الحقوق محفوظة لشركة سفير

رقم الإيداع: ٢٢٨٧٥ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولي: I.S.B.N. 977 - 361 - 393 - 3

نحنُ مسلمون..!

الزَّمَنُ عَامُ (٨٢) الهِجْرِيُّ. زَمَنُ الخَلِيفَةِ الأُمَوِيِّ «عَبْدِ المَلِكِ بنِ مَرْوَانَ».

مَدِينَةُ القَيْرَوَانِ. قَصْرُ الأَمِيرِ "حَسَّانَ بنِ نُعْمَانَ" قَاعَةُ الحُكْمِ.

كَانَ «حَسَّانُ» يَجْلِسُ مَهْمُومًا. اخْتَارَهُ الخَلِيفَةُ لِرَدْعِ الرُّومَانِ.

أَنْزَلَ بِهِمْ «حَسَّانُ» الضَّرَبَاتِ. أَلْحَقَ بِهِمُ الهَزَائِمَ. رَجَعَ مُنْذُ سِنِينَ أَرْبَعٍ إِلَى القَيْرَوَانِ. كَانَ ذَلِكَ بِتَدْبِيرِ امْرَأَةٍ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ..!

مَا بَالُ الأَمِيرِ..؟

أَفَاقَ «حَسَّانُ» مِنْ غَيْمَةِ الفِكْرِ، تَأَمَّلَ رَئِيسَ جُنْدِهِ وَابْتَسَمَ. الرَّجُلُ أَشْعَثُ الشَّعْرِ، غَلِيظُ المَلَامِحِ:

- أَسْبَحُ فِي لُجَّةِ الفِكْرِ..

- أَهِيَ الكَاهِنَةُ..؟

- وَمَنْ غَيْرُهَا..؟ لَمْ يُوقِفْ زَحْفَنَا سِوَاهَا..!

- وَالحَلُّ يَا أَمِيرُ..؟

رَدَّدَ "حَسَّانُ" النَّظَرَ، تَطَلَّعَ إِلَى بَابِ القَاعَةِ.

لَمْ أَعْتَدْ سُكْنَى القُصُورِ. كَمْ أَشْتَاقُ إِلَى حَيَاةِ الخِيَامِ..!

فَجْأَةً بَرِقَ خَاطِرٌ لِحَسَّانَ. لَمِعَتْ عَيْنَاهُ..

- وَفَّقَنِي اللَّهُ إِلَى الحَلِّ...

تَهَلَّلَ وَجْهُ "مُزَاحِمَ" لأَنَتْ مَلامِحُهُ. حَمْدًا لِلَّهِ..!

لَمْ يَرَهُ "حَسَّانُ" بَاسِمًا مِنْ قَبْلُ..

- خَيرًا، يَاأَمِيرُ..؟

- الكَاهِنَةُ، «دَاهِيَةُ بِنْتُ مَاتِيَةَ» مِثْلُ الخَيمَةِ...

- فَمَا الأَوْتَادُ..؟

- هُمْ جُنُودُهَا المُلَثَّمُونَ..

- يَقْصِدُ الأَمِيرُ البَرْبَرَ، البُتْرَ..؟

هُمْ. عَلَينَا نَزْعُ الأَوْتَادِ فَتَسْقُطُ الخَيمَةُ.

بَرِقَتْ عَينَا "مُزَاحِمَ".

- لَكِنْ، كَيْفَ..؟

فِي قَلْعَةِ الكَاهِنَةِ بِقَرْطَاجَنَّةَ بِاللَّيلِ.

فِي قَاعَةِ العَرْشِ جَلَسَتْ. هِيَ مَلِكَةُ جِبَالِ الأُوْرَاسِ بِشَمَالِ إِفْرِيقِيَةَ. تَحْتَ إِمْرَتِهَا اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ سَمَّاهُمُ العَرَبُ الطَّوَارِقَ. نُجُومٌ ثَوَاقِبُ تَهْجُمُ فَتَحْرِقُ.

مُلَثَّمُونَ بِاللَّيلِ والنَّهَارِ.

رَدَّدَت الكَاهِنَةُ فِيهِمُ النَّظَرَ.. تَكَلَّمَتْ بِصوتٍ غَلِيظٍ:

- زَالَ خَطَرُ حَسَّانَ..!

وَأَطْلَقَتْ ضَحْكَةً كَالرَّعْدِ. ارْتَجَّتْ قُلُوبُ جُنْدِهَا.

أَنْصَتُوا فِي رَهْبَةٍ.

أَحْسَنْتِ أَيَّتُهَا الزَّعِيمَةُ..! قَالَهَا «مُرَاوِعُ» قَائِدُ البُتْرِ.

تَفَرَّسَتْ فِيهِ. لاَحَظ الرجُلُ بَرِيقًا مُخِيفًا فِي عَيْنَيهَا.

- أَنْتَ تَقُولُ هَذَا..؟

تَبَادَلَ المُلَثَّمُونَ النَّظَرَاتِ.

المَرْأَةُ عَجِيبَةٌ.لهَا نَحْوُ العِشْرِينَ سَنَةً تَحْكُمُهُم.

لاَ أَحَدَ يُنَاقِشُها . تَضَعُ الخُطَطَ، تَبْرَعُ فِي التَّدْبِيرِ.

حَالَفَتِ الرُّومَانَ. عَهِدُوا إِلَيها بِإِيقَافِ جَيشِ الإِسْلامِ الزَّاحِفِ.

الطَّوَارِقُ اعْتَادُوا النَّصْرَ. الوَاحِدُ كَالنَّخْلَةِ. صُلْبُ الجِذْعِ.

لايَهَابُ المَوْتَ. الجُوعُ لايُوهِنُ العَزْمَ.

قَالَ «مُرَاوِعُ»: أَوَامِرُكِ يَازَعِيمَةُ.

بِصَوتٍ كَالفَحِيحِ قَالَتْ: أَبِيدُوا جَيْشَ «حَسَّانَ».

- لَكِنْ يَازَعِيمَةُ..

– مَاذَا ..؟

حَسَّانُ وَجَيشُهُ بَعِيدَانِ وَ...

قَاطَعَتْهُ بِغَضَبٍ: أَلَمْ تَسْمَعْنِى..؟

– بَلَىْ سَمِعْتُ . المُسْلِمُونَ مَاحَرَقُوا الزَّرْعَ. مَاقَتَلُوا الطِّفْلَ. مَا هَتكُوا العِرْضَ.

ضَحِكَتْ ضَحْكَةً مَقِيتَةً.

– الاعْتِرَاضُ مَرْفُوضٌ. فِى الفَجْرِ نُهَاجِمُ.

كَانَت الرِّيحُ تَعْصِفُ. خَرَجُوا، يَتَهَامَسُون.

طَارُوا كَالرِّيحِ. انْطَلَقُوا إِلَى "حَسَّانَ".

أَسْرَعَ جُنْدِىٌّ إِلَى «حَسّانَ» بِالخَبَرِ

كَانَ "حَسَّانُ" خَارِجَ قَصْرِهِ يَتَمَشَّى. لاَبِسُ الدِّرْعِ هُوَ. عَلَى رَأْسِهِ خَوْذَةٌ. فِى يَدِهِ سَيْفٌ.

– مَولاَى الأَمِيرَ..

تَوَقَّفَ وَهُوَ يَلْهَثُ:

- مَا الأَمْرُ..؟

- البَرْبَرُ قَادِمُونَ..

- أَهْلاً بِهِم..

- قَادِمُونَ فِى جَيْشٍ كَبِيرٍ.

تَذَكَّرَ "حَسَّانُ" أَنَّ «مُزاحِمَ» ذَهَبَ. خَرَجَ عَلَى رَأْسِ الجَيْشِ لِيُبَاغِتَ الطَّوَارِقَ. إِلَى قَرْطَاجَنَّةَ اتَّجَهُوا.

قَالَ لِلجُنْدِيِّ:

عُدْ إِلَى مَوْقِعِكَ. نَحْنُ قِلَّةٌ. النَّصْرُ لَنَا بِإِذْنِ اللَّهِ.

وَانْطَلَقَ إِلى جَوَادِهِ. انْطَلَقَ الجَوَادُ كَالسَّهْمِ المَارِقِ.

الطَّوَارِقُ كَالسَّيْلِ.. القَائِدُ يَسْتَحِثُّ جُنْدَهُ.

آه لَوْ يَصِلُونَ قَبْلَ الفَجْرِ..!

الزَّعِيمَةُ دَبَّرَتِ الهُجُومَ فِى الفَجْرِ

لاَ، لَنْ يَهْجُمُوا فِى الفَجْرِ.

لَنْ يَكُونَ الفَجْرُ لِلزَّعِيمَةِ. اللَّيلُ لَيْلُ الطَّوَارِقِ.

صَاحَ جُنْدِىٌّ: فَارِسٌ مُنْطَلِقٌ نَحْوَنَا..!

ضَحِكَ "مُرَاوِعُ": "حَسَّانُ" لاَيَنَامُ..!

بَانَ شَكْلُ القَادِمِ.

صَاحَ الجُنُودُ: يَا إِلَهِى...

إِنَّهُ "حَسَّانُ"نَفْسُهُ..

يَالِجَرْأَتِهِ..! إِنَّهُ وَحْدَهُ.!

صَاحَ القَائِدُ بِهِ: مَرْحَبًا..!

فِى قَصْرِ"حَسَّانَ"

يَضْحَكُ"مُرَاوِعُ" كَثِيرًا.

انْدَهَشَ "حَسَّانُ"

- تَخَيَّلْتُ أَنَّكُمْ جِئْتُمْ لِحَرْبِى..

- بَلْ جِئْنَا مُسَالِمِينَ..

- وَالكَاهِنَةُ؟

قَالَ "مُرَاوِغٌ": لَنْ تَحْكُمَنَا بَعْدَ اليَومِ.. لَقَدْ تَخَلَّصْنَا مِنْهَا!

نَعَمْ. ضِقْنَا ذَرْعًا بِقَسْوَتِهَا. تَأْمُرُنَا بِحَرْقِ الزَّرْعِ. بِإِبَادَةِ النَّسْلِ.

- فَمَاذَا تُرِيدُونَ..؟

- نَحْنُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ. أَلانَسْتَحِقُّ أَنْ نَكُونَ جُنْدًا مُسْلِمِينَ..؟

احْتَضَنَهُ "حَسَّانُ". قَالَ:

بَلَى. هَلُمَّ نُصَلِّي شُكْرًا لِرَبِّ العَالَمِينَ..!

كَرَامَةُ عَالِم

«مِصْرُ» المَحْرُوسَةُ. عَامُ (١٨٧٢)المِيلادِيُّ.

قَصْرُ الخِديو «إسْمَاعِيلَ» بِالقَلْعَةِ. حُجْرَةُ التَّشْرِيفَاتِ.

عَلِمْتُمُ المَطْلُوبَ يَامَشَايِخَ..؟

عِمَامَتُهُ كَبِيرَةٌ. قَاضِي قُضَاةِ بَنِي عُثْمَانَ. كَلِمَتُهُ لاَ تُرَدُّ..! سَخَافَاتُهُ فُكَاهَةٌ..

- نَعَمْ، سَيِّدَنَا.

- مَاتَصْنَعُونَ، أَفَنْدِم..؟

انْطَلَقَ الأَرْبَعَةُ يُجِيبُونَ...

قَالَ الزَّيْلَعِيُّ: نَرْكَعُ وَ..

تَابَعَ الحِفْنِيُّ: وَنَرْفَعُ اليَمِينَ وَ..

أَكْمَلَ "قُتَّايَةُ": وَنَنْهَضُ وَنَنْصَرِفُ بِظُهُورِنَا وَ..

وَسَأَلَ «العَدَوِيُّ» القَاضِيَ:

أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

نَظَرَ إِلَيهِمُ القَاضِي:

عَفَارِم مَشَايِخَ. انصِرَافٌ..!

- فَانْطَلَقُوا إِلَى الدِّيَارِ..

- فَهِمُوا المَطْلُوبَ يَاسَيِّدَنَا ..؟

- بَلْ حَفِظُوهُ، مَوْلاَنَا ...

- لاأُرِيدُ مُشْكِلَةً مَعَ السُّلْطَانِ..

- مَفْهُومٌ، أَفَنْدِينَا ..

هَرَشَ الخِدِيو لِحْيَتَهُ الكَبِيرَةَ:

- لَكَ خُلْعَةٌ سَنِيَّةٌ..

كَرْكَرَ كَبِيرُ القُضَاةِ. اهْتَزَّ كِرْشُهُ الضَّخْمُ.

- الكَرَمُ أَنْتَ، وَلِيَّ النِّعَمِ..

وَانْحَنَى بَدَنُهُ الرَّجْرَاجُ. حَيَّا. انْصَرَفَ.

"إسْمَاعِيلُ" فَرْحَانُ.شَعَّ الرِّضَا مِنْ عَينَيهِ اللَّوزِيَتينِ.

السُّلْطَانُ فِي الغَدِ قَادِمٌ. لاَ بُدَّ لِعَبدِ العَزِيزِ أَنْ يَرْضَى عَنْهُ.

هُنَاكَ جَفَاءٌ مِنْ أَيَّامِ جَدِّهِ «مُحَمَّد عَلِي بَاشَا».

آه، مَا أَصْعَبَ اسْتِعَادَةَ الوُدِّ الضَّائِعِ..!

زُهُورٌ رَائِعَةٌ بِالجُبَّةِ وَالقِفْطَانِ. بَدأَ الطَّابُورُ بِالأَقْدَمِ.

فِي المُقَدِّمَةِ «الزَّيلَعِيُّ».

مَنْفُوخٌ كَالدِّيكِ الرُّومِيِّ.

«إسْمَاعِيلُ» يُصَوِّبُ نَظْرَةً نَارِيَّةً. مَا بَالُ آخِرِ المَشَايِخِ

لاَيَنْظُرُ فِي الأَرْضِ..؟

السُّلْطَانُ عَلَى مِنَصَّةِ الاحْتِفَالِ. يَمِينُهُ "إسْمَاعِيلُ" يَسَارُهُ

القَاضِي العُثْمَانِيُّ.

تَتَابَعَ المَشْهَدُ. رُكُوعٌ. انْحِنَاءٌ. تَحِيَّةٌ بِاليَمِينِ. انْصِرافٌ بِالظَّهْرِ.

فَجْأَةً صُعِقَ "إسْمَاعِيلُ". هَمَسَ:

مُسْتَحِيلٌ..!

تَقَدَّمَ «العَدَوِيُّ». بِخُطًى وَاثِقَةٍ مُتَمَهِّلَةٍ. وَقَفَ أَمَامَ السُّلْطَانِ.

رَأْسٌ مَرْفُوعٌ. نَظْرَةٌ حُرَّةٌ: السَّلاَمُ عَلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ..

أَجَابَهُ «عَبْدُ العَزِيزِ»: وَعَلَيكَ السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ

إسْمَاعِيلُ تَكَادُ الأَرْضُ تَبْلَعُهُ. لاَيُصَدِّقَ عَيْنَيهِ. «العَدَوِىُّ» جَاوَزَ الحَدَّ. كَسَّرَ القَوَاعِدَ. نَسَفَ الأُصُولَ المَرعِيَّةَ..

- أَلَكَ حَاجَةٌ، يَاشَيْخُ..؟

- عَفْوًا، بَلْ لِرَعَايَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ..

- هَاتِ مَاعِنْدَكَ..!

- أَجُنِنْتَ، يَاعَدَوِىُّ..؟

وَاجَهَ الشَّيْخُ الخَدِيو: أَنَا..؟

- خَالَفْتَ تَعْلِيمَاتِى، مَا رَدُّكَ..؟

ابْتَسَمَ «العَدَوِىُّ» . كَادَ عَقْلُ «إسْمَاعِيلَ» يَذْهَبُ.

- المَشَايِخُ خَالَفُوا.. أَنَا لاَ.

- مَاذَا تَقُولُ..؟

- حَرَصَ النَّبِىُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- عَلَى كَرَامَتِنَا..

- كَرَامَتُكُم..؟

- نَعَمْ. أَمَرَنَا أَلاَّنَسْجُدَ أَوْ نَرْكَعَ لِبَشَرٍ..

- مَاشَاءَ اللَّهُ. وَنُصْحُكَ لِلسُّلْطَانِ؟

- لَمْ يَغْضَبِ السُّلْطَانُ. وَعَدَنِى أَنْ يَفْعَلَ خَيرًا..

- لِمَاذَا أَنْتَ بِالذَّاتِ..؟

- النُّصحُ وَاجِبٌ لِلجَمِيعِ..

- هكَذَا ..! وَالمَشَايِخُ..؟

- حِسَابُهُم عَلَى رَبِّهِم..

- الْزَمْ بَيْتَكَ. مَفْهُومٌ..؟

- رِزْقِى عَلَى اللَّهِ..

سَأَلَهُ السُّلْطَانُ عَنِ «العَدَوِىِّ». قَالَ «إِسْمَاعِيلُ» إِنَّهُ أَبْلَهُ.

ضَحِكَ السُّلْطَانُ كَثِيرًا ..

بَلْ هُوَ أَعْظَمُهُم وَأَعْقَلُهُم وَأَشْجَعُهُم. انْشَرَحَ لَهُ قَلْبِى.

أَمَرْتُ لَهُ بِخُلْعَةٍ سَنِيَّةٍ وَجَائِزَةٍ مَالِيَّةٍ..!

وَذَهَبَ "إِسْمَاعِيلُ" . تَقَلَّبَتِ الأَيَّامُ بِالشَّيخِ «العَدَوِىِّ». اهْتَزَّتْ "مِصْرُ" بِثَوْرَةِ عُرَابِى.

الشَّيْخُ سَانَدَ الثَّوْرَةَ. أَلْقَى الخُطَبَ.

تَبَرَّعَ بِالمَالِ. آوَى فِى دَارِهِ الثُّوَّارَ.

فَجْأَةً انْكَسَرَ الثُّوَّارُ. هَجَمَ عَسْكَرُ

الخِدِيو الجَدِيدِ " تَوفِيقٍ" الدَّارَ.

قَبَضُوا عَلَى الشَّيخِ سَجَنُوهُ.

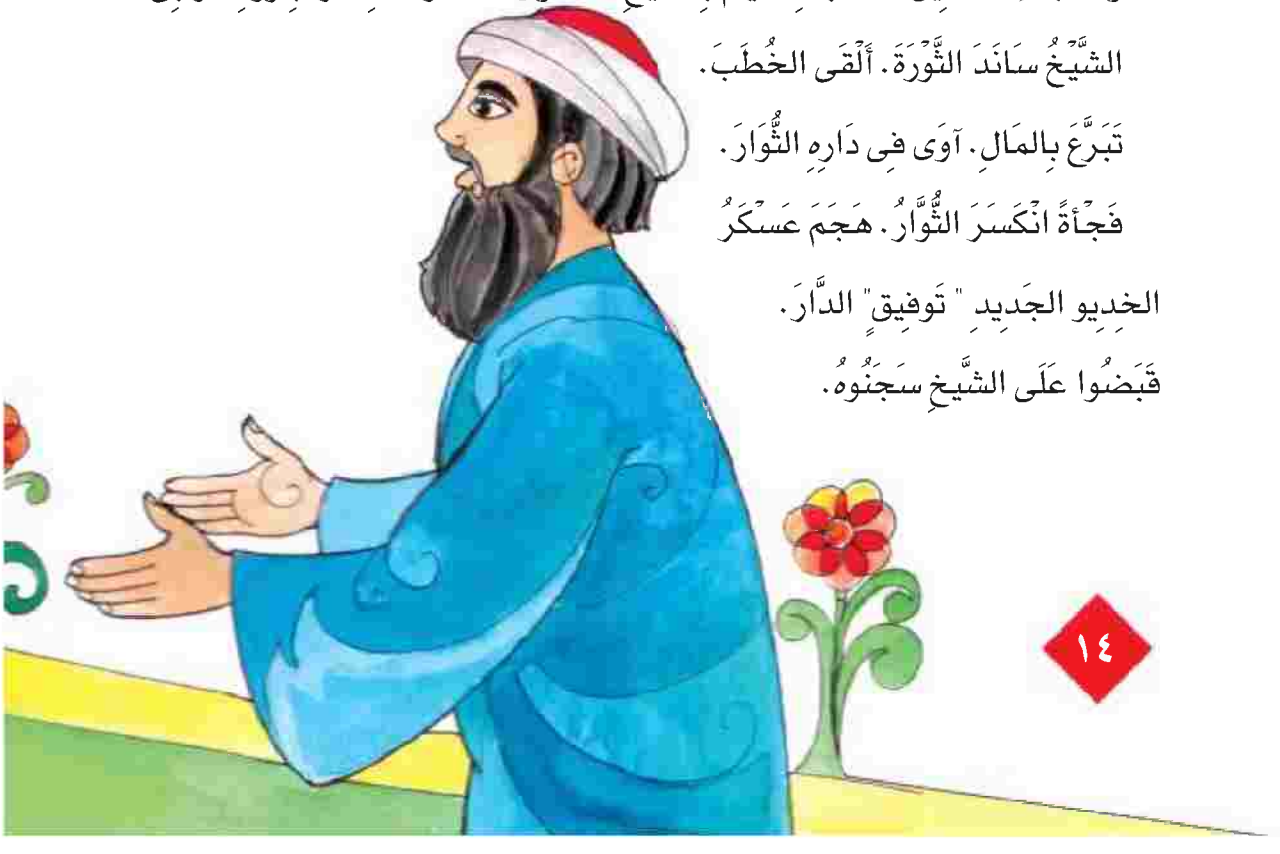

عَانَى الشَّيخُ الآلاَمَ. عَادَ إلَى دَارِهِ. جَرّدُوهُ مِنَ الرُّتَبِ والأَلْقَابِ.

لَمْ يَبْكِ الشَّيْخُ. صَبَرَ عَلَى البَلاَءِ.

• • •

الشَّيخُ يَتَأَمَّلُ شَمْسَ الغُرُوبِ. لَمَحَ بَصِيصًا مِنَ النُّورِ.

سَرَحَ عَقْلُهُ إلَى البَعِيدِ. كَمْ عَانَى مِنْ أَهْوَالٍ..!

تَذَكَّرَ مَاحَدَثَ بَعْدَ لِقَائِهِ بِالسُّلْطَانِ.

كَانَ المَشَايِخُ بِانْتِظَارِهِ خَارِجَ القَصْرِ

بَادَرَهُ «الزَّيْلَعِيُّ»: تَتَفَلْسَفُ

يَاعَدَوِيُّ..؟

وَقَالَ "الحِفْنِيُّ".

- وَتَنْصَحُ

السُّلْطَانَ..؟

وَبِصَوْتٍ سَاخِرٍ أَضَافَ «قَتَّايَةُ»:

سَتَكُونُ نِهَايَتُكَ الحَبْسَ والتَّشْرِيدَ..!

ابْتَسَمَ" العَدَوِيُّ": لاَتُزْعِجُوا أَنْفُسَكُمْ..!

عَادُوا يَنْظُرُونَ إِلَيهِ فِى اسْتِغْرَابٍ..

لَمْ يُعَقِّبْ بَعْدَهَا.

انْطَلَقَ فِى سَبِيلِهِ.

سَارَ ثَابِتًا كَالجَبَلِ.

يَكْفِيهِ أَنْ قَابَلَ السُّلْطَانَ كَالنِّدِّ لِلنِّدِّ.

لَمْ يَرْكَعْ مِثْلَمَا يَفْعَلُ الجَاهِلِيُّونَ لِلأَصْنَامِ..!